

دور المدرسة اليوسفية في انتشار العلوم والمعارف في مملكة غرناطة

أ.د أحلام حسن مصطفى النقيب * د.برزان ميسر حامد أحمد **

تأريخ القبول: ٢٠١٢/٦/١٩

تأريخ التقديم: ٢٠١٢/٥/٣

المقدمة

مدينة غرناطة أو أغرناطة حسبما وردت في الروض المعطار^(١) المدينة العربية الإسلامية القديمة التي أفرزت شخصيات علمية وسياسية وأدبية وثقافية وفقهية، وانتهجت سياسة معينة أطالت من بقاءها فترة زمنية طويلة صامدة بوجه الاسبان متحدية كل الصعاب، مما حدا بالمؤرخين^(٢) إلى تسميتها بـ (الأندلس الصغرى).

نشأت مملكة (سلطنة) غرناطة عام (٦٣٥ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٤٩٢ م) أو ما تسمى بالدولة النصرية نسبة إلى بُنائها النصرين قبيل القرن ٧ هـ / ١٣ م واتخذت من المدينة (غرناطة) عاصمة لها^(٣).

* قسم التأريخ / كلية التربية/ جامعة الموصل.

** قسم التأريخ / كلية التربية/ جامعة الموصل.

(١) لحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: احسان عباس، ط١، بيروت، دار العلم للطباعة، ١٩٧٥، ص٤٥.

(٢) الحجي، عبد الرحمن علي، التأريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، ط١، بيروت - دمشق، دار القلم، ١٩٧٦، ص٥٠٩؛ الكبيسي، خليل إبراهيم، طه، عبد الواحد دنون، مطلوب، ناطق صالح، تأريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، جامعة الموصل، مطبعة دار الكتب للطباعة والنشر، ١٩٨٦، ص٢٨٩.

(٣) ارسلان، شقيب، الحل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، د. ت ١ / ١٨٨، ١٨٩؛ شبانة، محمد كمال، يوسف الأول بن الأحمر، سلطان غرناطة، ط١، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٤، ص ١٧، ١٨، الصاوي، الصاوي محمد، دولة بني الأحمر والموريسكيون، ط١، الجزيرة، الدار العالمية للكتب والنشر، ٢٠١٠، ص٨٨.

تقع غرناطة في الركن الجنوبي من الأندلس (شبه جزيرة أيبيريا) على نهر الوادي الكبير، يحدها من الشمال مدينة قرطبة وجيان^(١)، ومن الشرق مدينة مرسية^(٢)، ومن الغرب مدينة قادس^(٣)، واشبيلية وأرض الفرنتيرة^(٤) ومن الجنوب مدينة مالقة^(٥)

(١) جيان: مدينة بالأندلس قديمة مشهورة، ازلية من بنيان الأوائل، بينها وبين غرناطة مسافة خمسين ميلاً، وهي كثيرة الخصب، رخيصة الاسعار، وبها جنات وبساتين ومزارع. ينظر: ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبي، صورة الأرض، ط ٢، بيروت، منشورات مكتبة الحياة، ١٩٧٩، ص ١٠٥؛ الادريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله الحمودي الحسني المعروف بالشريف، نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ١٩٩٤، ٢/ ٥٦٨؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٨٣.

(٢) مرسية: مدينة بالأندلس وهي قاعدة تدمير، بناها الامير عبد الرحمن بن الحكم، واتخذت دار العمال وقرار القواد، ولها جامع جليل وحمامات واسواق عامرة، واسعارها رخيصة الفواكه كثيرة الشجر والاعناب واصناف الثمر. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣٩

(٣) قادس: جزيرة بالأندلس عند طالقة من مدن اشبيلية وبها مزارع كثيرة الريح، واكثر مواشيتها المعز، وبها اثار للؤل كثيرة. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٤٤٨.

(٤) أرض الفرنتيرة: وتكتب انتقيرة مدينة أندلسية قديمة حصينة تقع شمال غرب مالقة وتبعد عنها ٥٩ كم ومعناها بالاسبانية الحدود الفاصلة بين دولتين. ينظر: ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد السلماني، مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله)، نشر: أحمد مختار العبادي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٣، ص ٩٤.

(٥) مالقة: مدينة بالأندلس تقع على شاطئ البحر شرق غرناطة، وهي من أشهر مراسي البحر المتوسط ومنها إلى غرناطة ثمانون ميلاً. ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ٢/ ٥٦٥، ٥٧٠؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥١٧؛ ابن الخطيب، مشاهدات، ص ٥٧؛ معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق: محمد كمال شبانة، طبعة جديدة، القاهرة، مكتبة الثقافة الدينية، ٢٠٠٢، ص ٨٧؛ ابن فضل الله العمري، شهاب الدين أحمد بن يحيى، مسالك الإبصار في ممالك الامصار، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، ط ١، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠١٠، ٤/ ١٢٤.

ومضيق جبل طارق^(١).

كانت المملكة اداريا تشمل وقتذاك ثلاث ولايات كبرى^(٢) هي:

ولاية المرية: وتشمل المساحة التي تشغلها مرسية حتى شاطئ البحر المتوسط، وأهم مدنها: المرية^(٣)، وندرش^(٤)، ودلاية^(٥)،

وبرجة^(١)، وبرشانة^(٢)، والمنصورة^(٣)، وبيرة^(٤) **ولاية مالقة:** وموقعها متاخم لساحل البحر شرقي غرناطة، وأهم مدنها مالقة ومربله^(٥) ورنده^(٦)، وانتقيرة، وارشدونة^(٧)، وبليش^(٨) مالقة، وقمارش^(٩)،

(١) البغدادي، صفي الدين عبد المؤمن بن عبدالحق، مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق: علي محمد الجاوي، بيروت، دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٥٤، ٢/٩٩٠؛ القلقشندي، احمد بن علي، صبح الاعشى في صناعة الانشا، شرحه وعلق عليه وقابل نصوصه: نبيل خالد الخطيب، ط١، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٧، ٥/٢٠٧، ٢٠٨.

(٢) ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد السلماني، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبدالله عنان، القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ١/١١٥ - ١١٩؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، (نهاية الأندلس وتأريخ العرب المنتصرين)، القاهرة، ١٩٩٦، ص ٥٥.

(٣) المرية: مدينة بالأندلس محدثة أمر ببناءها أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن ابن محمد سنة أربع وأربعين وثلاثمائة، وهي من أشهر مراسي الأندلس واعمراها، ومن اجل امصارها وأشهرها، وعليها سور حصين. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣٧، ٥٣٨؛ ابن الخطيب، مشاهدات، ص ٤٣ هامش رقم (١). سالم، السيد عبد العزيز، تأريخ مدينة المرية الإسلامية (قاعدة أسطول الأندلس)، ط١، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٦٩.

(٤) اندرش: بلدة من أعمال المرية غير موجودة الآن ولكن لا يزال اسمها يطلق على نهر هناك ينبع من جبل شليز وينحدر شرقاً وجنوباً ثم يصب مياهه في البحر المتوسط عند المرية. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٤٢؛ ابن الخطيب، مشاهدات، ص ٨٨ هامش رقم (١).

(٥) دلاية: قرية بالأندلس من أعمال المرية. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٢٣٦؛ ابن الخطيب، مشاهدات، ص ٨٢ هامش رقم (١).

كما تتبعها طريف^(١٠)، والجزيرة الخضراء^(١١) وجبل طارق.

- (١) **برجة**: من أعمال المرية ايضاً وتقع غرب ثغر المرية. ينظر: ابن الخطيب، **معيان الاختيار**، ص ٩٨؛ **مشاهدات**، ص ٨١ هامش رقم ٢.
- (٢) **برشانة**: بالأندلس وهي حصن على مجتمع نهريين، وهو من امنح الحصون مكانة وأوثقها بنايماً، وأكثرها عمارة. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ٨٨؛ ابن الخطيب، **مشاهدات**، ص ٣٦ هامش رقم (١).
- (٣) **المنصورة**: تقع شمال شرق المرية. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٥٠.
- (٤) **البيرة**: بلدة حصينة تشرف على ساحل البحر المتوسط في شمال شرق غرناطة. ينظر: ابن الخطيب، **معيان الاختيار**، ص ١٠٤؛ **مشاهدات**، ص ٤٠ هامش رقم (١).
- (٥) **مريلة**: مدينة بالأندلس صغيرة مسورة من بناء الأول، تقع بالقرب من مرسى مالقة، وهي محكمة العمل ولها عمارات وأشجار تين كثيرة. ينظر: الادريسي، **نزهة المشتاق**، ٥٧٠/٢؛ الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٣٤؛ ابن الخطيب، **معيان الاختيار**، ص ٨٥؛ **مشاهدات**، ص ٧٥ هامش رقم (٦)؛ ابن فضل الله العمري، **مسالك الإبصار**، ٤/١٢٥.
- (٦) **رندة**: مدينة بالأندلس من مدن تاكرنا تقع غرب مالقة وهي من أهم القواعد الأندلسية، ومن أهم مدن غرناطة، بها اثار كثيرة، وهي على نهر ينسب إليها. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ٢٦٩؛ ابن الخطيب، **معيان الاختيار**، ص ١٣٠؛ **القلقشندي**، **صبح الاعشى**، ٢٢٠/٥.
- (٧) **ارشذونة**: بالأندلس وهي قاعدة كورة رية ومنزل العمال والولاية، ولها مدن كثيرة، وبها آثار قديمة. ينظر: الحميري، **الروض المعطار**، ص ٢٥.
- (٨) **بليش**: تقع غرب مدينة مالقة على مسافة ٣٤ كم. ينظر: ابن الخطيب، **معيان الاختيار**، ص ٩٢.
- (٩) تقع بالقرب من مدينة غرناطة وهي وافة الماء والزرع من كروم وزيت وحبوب. ينظر: ابن الخطيب، **معيان الاختيار**، ص ٩٢؛ **مشاهدات**، ص ٧٩، هامش رقم (١).
- (١٠) **طريف**: جزيرة بالأندلس منسوبة إلى القائد طريف بن مالك المعافري المكنى أبو زرعة، تقع على البحر في أول المجاز المسمى بالزقاق، ويتصل غربيها ببحر الظلمة

واخيراً ولاية غرناطة: التي تتوسط المملكة ممتدة جنوباً حتى البحر، وأهم مدنها العاصمة نفسها^(٢) ووادي آش^(٣)، والحامة^(٤)،

وحصن اللوز ولوشة^(٥)، وارجبة^(٦)، واشكر^(١)، وبسطة^(٢)، وشلوبانية^(٣).

(المحيط الاطلسي)، هي مدينة صغيرة عليها سور تراب، ويشقها نهر صغير، وبها اسواق وفنادق وحمامات، ومنها إلى الجزيرة الخضراء ثمانية عشر ميلاً. ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٩/٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٢؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ١٢٦/٤.

(١) الجزيرة الخضراء: مدينة بالأندلس، ويقال لها جزيرة أم حكيم نسبة إلى جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، كان حملها معه فتخلفها بهذه الجزيرة فنسبت إليها، وعلى مرسى أم حكيم تقع مدينة الجزيرة الخضراء، وهي على ربوة مشرفة على البحر. ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ٥٣٩/٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٢٢٣؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ١٢٦/٤.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١١٥ - ١١٩؛ المقري، أبو العباس احمد بن محمد التلمساني، نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: محي الدين عبد الحميد، القاهرة، ١٩٤٩، ١٥٥/١، ١٦٤ - ١٦٨، ارسلان، الحلل السندسية، ١/ ١٨٩ وما بعدها.

(٣) وادي آش: مدينة الأندلس قريبة من غرناطة، كبيرة خطيرة، تطرد حولها المياه والانهار، ينحط نهرها من جبل شلير، وهي كثيرة التوت والأعاب وأصناف الثمار والزيتون والقطن بها كثير. ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٧/٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٦٠٤؛ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص ١١٢؛ ابن فضل الله العمري، مسالك الابصار، ١١٨/٤.

(٤) الحامة: تقع بالقرب من مدينة بجانة، وهي من أعمال المرية، وقد اطلق العرب عليها إسم الحمة نسبة إلى العين الحارة التي تفجرت بها وهي مقصد كثير من ذوي العلل والأسقام. ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٢٠٠؛ ابن الخطيب، معيار الاختيار، ص ١٢٤.

(٥) حصن اللوز ولوشة: بالأندلس من أقاليم البيرة، ويذكر ابن الخطيب، ان هذه البلدة موطنه وعاش والده بها. ينظر: مشاهدات، ص ٩٣، هامش رقم (٦)؛ ابن فضل الله العمري،

مسالك الابصار، ١١٧-١١٨/٤

(٦) ارجبة: لم اعثر لها على ترجمة.

تخترق المملكة عدة أنهار أهمها نهر شنيل، ونهر حدره، ونهر المنصورة، كما تخترقها سلسلة جبال سييرانيفادا في الوسط وهضاب البشرات، و تنتشر سهولها الخضراء المترامية الأطراف، والتي تغني المنطقة بثروة زراعية هامة، زيادة على ما تجود به المناطق الجبلية من معادن نفيسة كالحديد والرصاص والنحاس^(٤).

اقترن اسم مملكة غرناطة في تأريخ الأندلس بأسم اسرة بني الاحمر أو بني نصر أو النصريون، تلك الدولة الإسلامية الصغيرة التي أوجدتها ظروف غير عادية وبقيت صامدة للفتن السياسية بالداخل، والتيارات الحربية من الخارج قرابة قرنين ونصف من الزمان (٦٣٥ - ٨٩٧ هـ / ١٢٣٨ - ١٤٩٢ م) وقد ذكر المؤرخون^(٥) ان السلاطين الذين تعاقبوا الملك على غرناطة من بني نصر يرجع

(١) اشكر: بلدة في ولاية غرناطة وتقع شمال بسطة. ينظر: ابن الخطيب، مشاهدات، ص ٨٧، هامش رقم (٣).

(٢) بسطة: مدينة قديمة متوسطة المقدار، حسنة الموضع، لها أسوار حصينة تقع في شمال غرناطة بنحو ١٢٣ كم، وكانت مشهورة بمنتجاتها الزراعية ولاسيما الزيتون، وبمنتجاتها الحربية. ينظر: الادريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢؛

(٣) شلوبيانية: وتكتب شلوبينية وشلوبين، وهي من الثغور الصغيرة الواقعة جنوبي ولاية غرناطة على البحر المتوسط، كما أنها تقع شرق المنكب، وتحيط بها الجبال من الشمال والغرب. ينظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ١٢٣/٤.

(٤) الحموي، شهاب الدين أبي عبدالله ياقوت، معجم البلدان، طبعة جديدة مصححة ومنقحة، قدم لها: محمد عبدالرحمن المرعشلي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د. ت، ٣ / ٣٨٢؛ ابن فضل العمري، مسالك الابصار، ١١٦/٢ - ١١٨؛ الطوخي، احمد محمد، مظاهر الحضارة في الأندلس في عصر بني الأحمر، تقديم: احمد مختار العبادي، الاسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٩٧، ص ٥٠؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ١٧، ١٨.

(٥) ابن الخطيب، اللحة البدرية في الدولة النصرية، ٢، بيروت، دار الأفاق الجديدة، ١٩٧٨، ص ٤٢، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١ / ١٤٨؛ ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الحضرمي المغربي، تأريخ ابن خلدون المسمى العبر، بيروت، منشورات الاعلمي للمطبوعات، ١٩٧١، ٤ / ١٧٠؛ باشا، ضيا، دولة الموحدين ودولة بني الأحمر

نسبهم إلى سعد بن عبادة الخزرجي الأنصاري، أحد كبار صحابة رسول الله (ﷺ) وسيد قبيلة الخزرج من الأنصار بالمدينة، مما يضيف على هؤلاء السلاطين عراقة في المجد ونسبة في التاريخ المشهور.

قامت مملكة غرناطة إثر سقوط دولة الموحدين (٥٤٠ - ٦٢٠ هـ/١١٤٥ - ١٢٢٣ م) في ثنايا الفتن والدسائس والثورات. وكان أول ملوكهم ومؤسس دولتهم هو الغالب بالله، أمير المؤمنين أو عبدالله محمد الأول بن يوسف بن محمد بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري (٦٣٥ - ٦٧١ هـ/١٢٣٨ - ١٢٧٢ م) الملقب بالشيخ والغالب بالله، ولد في "ارجونة" من أعمال ولاية جيان عام ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨ م، حيث تربي تربية دينية وعاش حياة بسيطة أملتتها ظروف الجندية التي خاض غمارها بادئ ذي بدء فتمكن بهذه الصفات وغيرها من مؤهلات الزعامة أن يسود قومه، وكانت الأندلس يؤمئذ على حال من الاضطراب والفوضى جعله يفكر بإقامة دولة ولملمة ما بقي من العرب المسلمين في الأندلس تحت نفوذه، وكان هدفه من ذلك إعادة مجد العرب المسلمين فيها^(١).

تعاقب على حكم مملكة غرناطة بعد وفاة مؤسسها أبي عبدالله محمد بن يوسف بن الأحمر عشرون سلطاناً، كان سابعهم السلطان أبو الحجاج يوسف الأول ابن إسماعيل (٧٣٣ - ٧٥٥ هـ/ ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) بدر الملوك وزين الأمراء، بويغ بغرناطة بوادي السفائين من ظاهر الخضراء ضحوة يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر ذي الحجة، ساعة مقتل أخيه محمد الرابع، أواخر سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م وعمره خمسة عشرة عاماً وثمانية أشهر. أمه أم ولد تسمى بهاراً، متصفاً في الخير والصون والرجاحة. كان في صباه كثير الصمت والسكون، فلم يمارس شيئاً من أعمال الدولة إلا بعد ان توفرت له الحنكة والتجارب، فقام بأعباء

وانهيار الأندلس الكبرى، تعريب: عبد الرحمن ارشيدات، مراجعة: صلاح ارشيدات، ط١، عمان، وزارة الثقافة، ١٩٧٩، ٣/ ٧٨؛ حومد، اسعد، محنة العرب في الأندلس، ط٢، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات، ١٩٨٨، ص ١٢٣ - ١٢٦.

(١) ابن الخطيب، للمحة البدرية، ص ٣٦؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٢٢؛ الصاوي، دولة بني الأحمر والموريسكيون، ص ٨٧، ٨٨.

الملك، وباشر بعض الحروب بنفسه، وقاتله الأسبان، وتمكن بسعيه من تخفيف حدة الشدة على بلاده. فكان ((من أعظم ملوك بني الأحمر عقلاً وأبعدهم همة وفضلاً وأقدرهم على تدبير شؤون الملك))^(١) فكان بحق عصراً ذهبياً.

والى جانب جرأته وشجاعته وبراعته السياسية، كان اديباً وفناناً ورجل إنشاء وتعمير، عاشت دولة بني الأحمر على أيامه عصرها الذهبي، فهو الذي أضاف إلى قصر الحمراء أعظم منشآتة واروعها، واسمه منقوش على جدرانها^(٢) ونوافذها عشرات المرات فهو كما قال عنه ابن الخطيب: ((كان أبو الحجاج من جلة الملوك فضلاً وعقلاً واعتدالاً))^(٣).

كما أولى الجانب الأدبي اهتماماً كبيراً، فقد كان رائد النهضة الأدبية التي سادت في أيامه ورعى روادها من الشعراء والكتاب، وذلك لما كانت تتطوي عليه شخصيته من روح شاعرية. فضلاً عن ذلك كان من مشجعي الحركة العلمية ففسح المجال في بلاطه لجهابذة العلم والادب، مما دفعه إلى تشييد المدارس

(١) المكناسي، أبو عبدالله محمد بن عثمان، الاكسير في فكاك الاسير، تحقيق: محمد الفاسي، الرباط، مطبعة اكدال، ١٩٦٥، ص ١٧٣؛ ابن الخطيب، اوصاف الناس في التواريخ والصلوات تليها الزواجر والعظات، تحقيق: محمد كمال شبانة، المغرب، مطبعة فضالة، د. ت، ص ٢٤؛ اللحة البدرية، ص ١٠٢؛ كناسة الدكان بعد انتقال السكان، تحقيق: محمد كمال شبانة، مراجعة: حسن محمود، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، د. ت، ص ٢٢؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٤٠، ٤١؛ باشا، دولة الموحدين ودولة بني الأحمر وانهباء الأندلس الكبرى، ص ١٧٣؛ الصاوي، دولة بني الأحمر والموريسكيون، ص ١٩٧.

(٢) طقوش، محمد سهيل، تاريخ المسلمين في الأندلس، ط ١، بيروت، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، ص ٥٩٨؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٤٣؛ فرحات، يوسف شكري، غرناطة في ظل بني الأحمر (دراسة حضارية)، ط ١، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٣، ص ٣٥.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الإعلام فيمن بويغ قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، القسم الثاني، نشر بعنوان: (تاريخ اسبانيا الإسلامية)، تحقيق: ليفي بروفنسال، ط ٢، بيروت، دار المكشوف، ١٩٥٦، ص ٣٠٤.

الثقافية بالمملكة(السلطنة)، ومن أعظم مفاخره في هذا المجال (المدرسة اليوسفية) سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م موضوع بحثنا، حيث كانت تحفة عصره وأعجوبة مَصْره، أنشئت بمبادرة من حاجبه ووزيره أبي النعيم رضوان النصري^(١)، ثم أوقف عليها الاوقاف المغلة رغبة منه في إعلاء شأنها ومساعدة قُصَادها من العلماء والطلاب على ان يرتادوها لينهلوا من علومها ومعارفها في يسر ورخاء، وبذلك غدت المدرسة اليوسفية أو مدرسة غرناطة وريثة للمكانة العلمية التي امتازت بها جامعة قرطبة^(٢).

المدرسة اليوسفية:

سميت هذه المدرسة نسبة إلى مؤسسها السلطان أبو الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل (٧٣٣-٧٥٥ هـ / ١٣٣٣ - ١٣٥٤ م) كما عرفت بالمدرسة النصرية والمدرسة العلمية ومدرسة غرناطة، وتعد من أشهر المراكز التعليمية في الأندلس

(١) أبو النعيم رضوان النصري، من الشخصيات اللامعة في تأريخ مملكة غرناطة، ظهر على عهد السلطان محمد الرابع (٧٢٥ - ٧٣٣ هـ / ١٣٢٥ - ١٣٣٣ م) واستمر على عهد السلطان أبو الحجاج يوسف الأول وعهد ابنه أبو عبدالله محمد الخامس الغني بالله (٧٥٥ - ٧٦٠ هـ / ١٣٥٤ - ١٣٥٩ م). تولى الوزارة وأظهر كفاية ممتازة في تدبير الشؤون السياسية، وقاد بعض الغزوات الناجحة إلى اراضى قشتالة، كما عهد اليه بمهام دبلوماسية على عهد السلطان أبو الحجاج يوسف، وصف بحسنة الدولة النصرية وفخر مواليتها، ومن أعظم مآثره إنشاء مدرسة غرناطة الشهيرة. ينظر: ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١/٥١٨، ٥٤٠، ٥٤٢؛ اللحمية البدرية، ص ١٠٣؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ٥٢؛ النقيب، أحلام حسن مصطفى، دور الوزير أبو النعيم رضوان في سياسة غرناطة الداخلية والخارجية، بحث منشور في مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، كلية التربية، المجلد ١١، العدد ٣، لسنة ٢٠٠٤، ص ١١.

(٢) شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٤٤، ٤٥؛ فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ٣٥، ٣٦؛ العبادي، احمد مختار، دراسات في تأريخ المغرب والأندلس، الإسكندرية، مؤسسة شباب الجامعة، ١٩٨٢، ص ٢٣٢، ٢٣٧.

دور المدرسة اليوسفية في انتشار العلوم والمعارف في مملكة غرناطة

أ.د. أحلام حسن مصطفى النقيب و د. برزان ميسر حامد احمد

بعد مسجد قرطبة الجامع، ومن أعظم مناهل العلم في الأندلس والمغرب^(١). نشأت على عهد السلطان الغرناطي أبي الحجاج يوسف الأول بناءً على مبادرة من الحاجب أبو النعيم رضوان النصري. ولقد حازت هذه المدرسة شهرة واسعة حتى اجتمع كافة المؤرخين تقريباً على اعتبارها أولى المدارس في الأندلس، كما أنها المدرسة الوحيدة التي وصلت بعض أجزائها إلى أيامنا هذه^(٢).

وقد أورد ابن الخطيب^(٣) ترجمة لمعاصره وصديقه الحاجب والوزير أبو النعيم رضوان النصري صاحب المبادرة في تأسيس هذه المدرسة مما يعطينا توضيحاً لبعض الأمور فيقول: ((أحدث المدرسة بغرناطة، ولم تكن بها بعد، وسبب إليها الفوائد، ووقف عليها الرياع المغلة، وانفرد بمنقبت ها، فجاءت نسيجة وحدها بهجة وصدراً، وظرفاً وفخامة وجلب الماء الكثير إليها من النهر، فأبد سقيه عليها، وأدار السور الأعظم على الرض الكبير المنسوب للبيازين. . .)).

موقع المدرسة:

كان ((موقع مدرسة غرناطة القديمة، قائماً في الدرب الضيق المحاذي لشارع الملكين الكاثوليكين تجاه المدفن الملكي))، في الجهة المقابلة من رحبة الجامع الكبير حيث كان يقع أجمل بناء في المدينة بل ربما في غرناطة كلها وهي المدرسة اليوسفية، ومع أن المدرسة كانت تشكل مثلاً من مكرمة ملكية إلا إن

(١) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١/٥١٦ - ٥١٧؛ عنان، محمد عبدالله، دولة الإسلام في الأندلس (نهاية الأندلس وتأريخ العرب المنتصرين)، ط٤، القاهرة، مطبعة المدني، ١٩٨٨، ص ١٢٦، ٤٤٣، ٤٤٤؛ عيسى، محمد عبد الحميد، تأريخ التعليم في الأندلس، تقديم، عبد الغني عبود، ط١، مصر، دار الفكر العربي، ص ٣٨٠؛ النقيب، أحلام حسن مصطفى، شخصيات وأحداث في تأريخ مملكة غرناطة، ط١، الموصل، مكتب القمة للنشر، ٢٠١٠؛ ص ١٧.

(٢) عيسى، تأريخ التعليم في الأندلس، ص ٣٩٠؛ فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٣٤؛ النقيب، شخصيات وأحداث، ص ١٨؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٩٩.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة: ١/٥١٦ - ٥١٧.

الذي أوحى بتأسيسها هو الحاجب رضوان كما سبقت الإشارة. وفي عام ١٥٠٠م تحولت المدرسة إلى مجلس إدارة المدينة على يد فرديناند وايزابيلا لتكون مقر عمليات (Casa de Cabildo) وبقيت دون أن يمسه تغيير كبير حتى القرن الثامن عشر الميلادي عندما هدمت وأقيم مكانها دار بلدية على الطراز الباروكي. (ولم يبق من البناء القديم سوى الجناح الذي يحتوي على المحراب)^(١) أي قاعة الصلاة التي قام المهندس الاسباني كونتيرا بترميمها، وتقع في الجهة المقابلة لكاتدرائية غرناطة^(٢).



معالم الخارطة نقلا عن: محمد عبدالله عنان، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، (ط٢، القاهرة، ١٩٦١)، ص ١٦٣

- (١) ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص ١٥٥ هامش المحقق رقم (٣)؛ عنان، محمد عبدالله، الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال (دراسة تاريخية أثرية)، ط٢، القاهرة، مؤسسة الخانجي، ١٩٦١، ص ١٧٢؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٩٩؛ جيمس دكي (يعقوب زكي)، غرناطة مثال من المدينة العربية في الأندلس، بحث منشور في كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، ط١، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨، ١/١٦٩.
- (٢) فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٣٥، ١٣٦.

تأسيس المدرسة:

يرى المستشرق الاسباني لويس ثيكو دي لوثيا ان العمل قد انتهى من بناء المدرسة في عام (٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م) حيث تشير إلى ذلك اللوحة التذكارية التي كانت منصوبة على واجهة المدرسة، والباقية حتى اليوم في متحف الآثار بغرناطة^(١) وأن بناء المدرسة قد تم تماماً خلال عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م وإن كان افتتاحها الرسمي قد تأجل حتى الشهر الأول من عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩م^(٢).

علماً ان المصادر لا تشير إلى سنة بدء العمل، ومن المحتمل ان العمل قد بدأ قبل سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٥٩م أي قبل ان يعزل السلطان أبو الحجاج يوسف حاجبه أبو النعيم رضوان ونفاه إلى المرية ثم استكمل الحاجب رضوان بناء المدرسة بعد عودته للسلطنة مجدداً^(٣).

وقد أوردت لنا المصادر التأريخية^(٤) نص مرسوم افتتاح المدرسة القائل:
(أمر بناء هذه الدار للعلم جعلها الله استقامة ونوراً، وأدامها في علوم الدين على الأيام، أمير المسلمين أظله الله بعونه العلي الشهير السيد الطاهر الرفيع الهمام السلطان المؤيد، أبو الحجاج يوسف ابن العلي الكريم، الكبير، الخطير الشهير، المجاهد الفاضل العادل المقدس الارضي أمير المسلمين وناصر الدين أبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر كافي الله في الإسلام صناعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية وتم ذلك في شهر محرم عام خمسين وسبعمائة)).

(1) Secode Lucena, El Hayib Ridwan y Granada, P. 295 – Alndalus XXI (1956) 285 296.

(٢) المرجع نفسه، ص ٣٩٧؛ كُولان، ج. س، الأندلس، ط١، القاهرة، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية، إبراهيم خورشيد وآخرون، بيروت، دار الكتاب اللبناني، القاهرة، دار الكتاب المصري، ١٩٨٠، ص ١٧٤.

(٣) النقيب، شخصيات وأحداث، ص ١٨.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١ / ٥١٦ - ٥١٧؛ المقري، نفح الطيب، ٩ / ١٨٦؛ وينظر: شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٩٩؛ عيسى، تأريخ التعليم في الأندلس، ص ٢٨٩.

وقد كتب هذا النص على لوحة رخامية عدت واحدة من اللوحات الخاصة بهذه المدرسة، إلا أنها نزعَت منها عند هدمها ونقلت إلى مختلف المتاحف الاسبانية ومنها متحف الآثار بغرناطة^(١).

وقد زخرفت المدرسة بالآيات القرآنية و الأبيات الشعرية فحملت على بابها أبيات شعرية لأبي الحسن بن الجياب^(٢) (ت: ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م)، التي يؤكد المقرئ^(٣) أنها كتبت على باب المدرسة العلمية (المدرسة اليوسفية) بغرناطة:

يا طالب العلم هذا بأبه فُتِحَا
فادخلْ تشاهدُ سناهْ لآخِ شمسِ ضُحَى
واشكرْ مجيدَكَ من حَلِّ ومرتلِ
اذ قَرَبَ اللهُ مِنْ مَرماكَ ما نَرَجَا
وشرقتْ حضرةُ الإسلامِ مدرسةً
بها سبيلُ الهوى والعلمِ قَدْ وضَحَا
أعمالُ يوسفَ مولاتنا ونبيتهُ
قَدْ طررتْ صُحفاً ميرانها رجحا

اما في الرواق الداخلي للمدرسة، فقد وجدت قصيدة من نظم الوزير ابن الخطيب تشيد بالمدرسة ومنشئها، وهي ميمية القافية، وتتألف من تسعة أبيات مطلعها:

(١) المقرئ، نفح الطيب، ٩ / ١٨٦؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ٩٩؛ عنان، الآثار الأندلسية، ص ١٧٢.

(٤) أبو الحسن بن الجياب: هو علي بن محمد بن سليمان بن علي بن سليمان بن حسن الانصاري الغرناطي، يكنى ابا الحسن، ويلقب بأبن الجياب، شاعر وأديب أندلسي غرناطي انصاري، من شيوخ لسان الدين بن الخطيب، ولد في غرناطة وبها نشأ وترعرع واخذ العلم عن مجموعة من علمائها الافاضل، توفي بالطاعون في غرناطة سنة ٧٤٩هـ / ١٣٧١ م، تاركاً وراءه الكثير من الشعر والنثر، جمع اقلبه تلميذه لسان الدين ابن الخطيب. ينظر: المقرئ، نفح الطيب، تحقيق: إحسان عباس، طبعة جديدة، بيروت، دار صادر، ١٩٩٧، ٤٣٤/٥، ٤٥٧.

(٣) نفح الطيب، ٧ / ٢٧٥، ٢٧٦، ٩ / ١٨٥؛ وينظر: عيسى، تأريخ التعليم في الأندلس، ص ٣٩٦.

إلا هكذا تبني المدارس للعلم

وتبقى عهود المجد ثابتة الرسم

ويقصد وجه الله بالعمل الرضا

وتجنى ثمار العز من شجر العزم

تفاخر منى حضرة الملك كلما

تقدم خصم في الفخار إلى خصم

فاجدى إذا ظن الغمام من الحيا

وأهدى إذا جن الظلام من النجم

فيا ظاعنا للعلم يطلب رحله

كفيت اعتراض البيد أو لجج اليم

بيابي حط الرجل لا تنو وجهه

فقد فزت في حال الإقامة بالغنم

فكم من شهاب في سمائي ثاقب

ومن هالة دارت على قمرتم

يفيضون من نور مبين إلى هدى

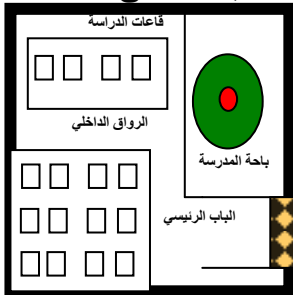
ومن حكمة تجلو القلوب إلى حكم

جزى الله عني يوسفًا خير ما جزى

ملوك بني نصر عن الدين والعلم^(١)

وفضلا عن ذلك فقد وجدت ثلاثة أبيات من الشعر منقوشة أيضاً على الباب

الرئيسي للمدرسة، مطلعها:



(١) المقري، نفح الطيب، ٧/ ٢٧٦، ٢٧٧، ١٨٦/٩؛ أزهار الرياض

مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، وعبد الحفيظ شلبي، الرباط، الد

الاندلسي بين حكومتي المملكة المغربية والامارات ال

١/ ٢٧٢؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٣٩٨-٣٩٩؛ الطويحي، فينظا هر

الحضارة، ص ٣١٧؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ١٠٠.

انظر إلى روضٍ عجيبٍ المنظرِ
 قد راقَ حسناً لامِحاً في المحجر
 وتأمل البابَ النسيجِ صناعته
 تُبدي الجلالَ بوضعه المتخير
 وادخل عليه للصلاة مُبادراً
 لتفوزَ إنعاماً بيومِ المعشر (١)

وليس لدينا بيانات كافية تساعد على رسم صورة لما كانت عليه المدرسة، ولكن يمكن أن نتخيل البناء من واقعه الحالي، ومما تقدمه لنا مدارس المغرب العربي، بأنه كان محتويًا على بهو واسع تحيط به رواقات جانبية تستخدم للتدريس، وأنه يحتوي على طابق علوي يستخدم لمبيت الطلبة الغريباء الواردين إلى المدرسة، وفي نهاية الفناء الكبير ألحق بالمدرسة مصلىً صغيراً لإقامة الصلاة، وهو الجناح الذي يحتوي على المحراب، وهذا الجزء من المدرسة هو الذي تبقّى من البناء القديم، فضلاً عن وجود مساكن للطلبة إلى جوار المدرسة ولوحات ونقوش عربية وقطع رخامية نزعت ونقلت إلى متحف غرناطة الأركيولوجي (٢).

أحباس المدرسة (الأوقاف)

يبدو أن أوقاف المدرسة كانت كثيرة حتى أن الأمر تطلب أن يُعَيّن لها مسؤول يخصص لذلك وهو محمد بن قاسم بن أحمد بن إبراهيم الانصاري المتوفى سنة

٧٧٠ هـ / ١٣٩٨ م والذي يقول عنه ابن الخطيب (٣).

((وهو الآن مستوطناً حضرة غرناطة، وتالياً للاعشار القرآنية بين يدي السلطان، اعزه الله، مرفع الجانب، معزز الجراية بولايته احباس المدرسة)).

(١) عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٣٩٨.

(٢) عنان، الاثار الاندلسية، ص ١٧٢؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٣٩٩ -

٤٠٠؛ النقيب، دور الوزير أبو النعيم رضوان، ص ١٨.

(٣) الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٣ / ١٩٦ - ١٩٩.

وقد الحق بالمدرسة مكتبة خاصة بها أمدها سلاطين غرناطة بالكتب، ومن الكتب التي أوقفت على هذه المدرسة في فترات لاحقة، "كتاب الإحاطة" لابن الخطيب، حيث أمر سلطان غرناطة أبو عبدالله محمد بن يوسف الثالث الملقب بالايسر (٨٢٠ - ٨٣١ هـ / ١٤١٧ - ١٤٢٨ م) بوقفه على المدرسة في عام ٨٢٩ هـ / ١٤٣٥ م، وذلك لانتفاع الدارسين بهذا المؤلف التأريخ ي الكبير^(١).

ومن الكتب الأخرى التي تم وقفها على المدرسة، كتاب "الإشارات والتبهيئات" لأبي الحسين بن سينا في المنطق والحكمة، كما كان كتاب ابن معط في علم النحو من الكتب المحبسة على مدرسة غرناطة^(٢)، كذلك اوقف صاحب الفضل في احداث المدرسة الحاجب أبا النعيم رضوان النصري، بأمر السلطان الاوقاف الجليلية عليها حتى غدت المدرسة ((نسيجة وحدها، بهجة وصدراً، وظرفاً وفخامة))^(٣).

ولابد هنا من الإشارة ايضاً إلى وجود بعض الفنادق المجاورة للمدرسة والتي كانت محبسة على بعض مساجد غرناطة، مما يعطي الاحتمال في استخدامها لصالح المدرسة لمبيت الطلبة الغرباء^(٤).

مدة الدراسة والبرامج المعتمدة في التدريس:

مصادرنا العربية تكاد تكون شحيحة في هذا المجال اذ لا تشير صراحة إلى عدد السنوات التي كان يقضيها الطلاب في المدرسة اليوسفية قبل تخرجهم، بل توصلنا إلى أن الطلاب المتفوقين كانوا يحصلون على إجازة خطية يمنحون بموجبها حق التدريس لمادة معينة أو كتاب معروف. أما بما يتعلق بالبرامج

(١) ابن الخطيب، كناسة الدكان، ص ١٥٥، ١٥٦، هامش المحقق رقم (٣)؛ المقرئ، نفح الطيب، ٩ / ٣٠٨ - ٣١٨؛ أزهار الرياض، ١ / ٥٥؛ شبانة، يوسف الأول بن الأحمر، ص ١٠١، النقيب، دور الوزير أبو النعيم رضوان، ص ١٨.

(٢) عيسى، تأريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠٠؛ الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٦.

(٣) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ١ / ٥١٦ - ٥١٧.

(٤) عيسى، تأريخ التعليم في الأندلس، ص ٣٩٧.

المعتمدة فقد كانت المدرسة اليوسفية تعرض لائحة من الكتب مع أسماء الأساتذة الذين يقومون بتدريسها. فالقرآن الكريم كان يتصدر اللائحة ثم يأتي بالدرجة الثانية كتاب (الموطأ) للإمام مالك بن أنس إمام دارة الهجرة "المدينة المنورة" (٩٣-١٧٩هـ/ ٧١٥ - ٧٩٦م)^(١).

وفي القرن الخامس عشر الميلادي/ الثامن الهجري، ظهر كتاب "تحفة الحكماء في نقاط العقود والأحكام" للقاضي أبي بكر بن عاصم الغرناطي (٧٦٠ - ٨٢٩ هـ / ١٣٥٩ - ١٤٢٦ م) فيه توضيحات وتعليقات استقاها القاضي من كتاب (الموطأ) وأقوال السلف، وقد اعتمد الكتاب في المدرسة اليوسفية ونال شهرة واسعة في المغرب والأندلس. كما اهتمت المدرسة اليوسفية بتعليم اللغة والأدب، فاعتمد شيوخها على كتاب سيبويه وآثار الجاحظ (١٥٩-٢٥٥هـ/ ٧٨١-٨٧٧م) ومقامات الهمذاني (ت: ٣٥٨ - ٣٩٥هـ/ ٩٦٩-١٠٠٧م)، والحريري (٤٤٦ - ٥١٦هـ/ ١٠٥٤-١٠١٢م)، وكتاب الأغاني لـ فهان (٥١٩ - ٥٢٧هـ/ ١١٢٥-١٢٠١م)، وأقبلوا على تدريس أشعار العرب عامة فكان ديوان الحماسة وديوان المتنبي وسقط الزند للمعري من الكتب المفضلة^(٢).

شيوخ المدرسة (المدرسين)

يلاحظ ان المدرسة اليوسفية بغرناطة كانت تختلف عن غيرها من المدارس الشرقية من حيث عدد المدرسين الذين يعملون بها في وقت واحد، فبينما نجد ان المدرسة النظامية في بغداد كان يتولى التدريس فيها مدرس واحد هو الشيخ الشيرازي (٢٩٣-٣٧٦هـ/ ١٠٠٣-١٠٨٣م) نرى ان المدرسة اليوسفية مختلفة تماماً، ففي الوقت الذي كان التجيبي (ت: ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢م) يدرس العلوم العقلية، كان الخولاني (ت: ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م) يدرس النحو والأدب، والسياري (ت: ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢م) يدرس الفقه.

(١) الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٧-٣١٨.

(٢) فرحات، غرناطة في ظل بني الأحمر، ص ١٣٥.

دور المدرسة اليوسفية في انتشار العلوم والمعارف في مملكة غرناطة
أ.د. أحلام حسن مصطفى النقيب و د. برزان ميسر حامد احمد

وفي الواقع أن المدرسة اليوسفية ضمت بين جدرانها كبار الشيوخ على عهداها، ولم يكن من السهل القيام بالتدريس فيها إلا لمن كان له باع طويل في مجال علمه فهي ((نوه مواضع التدريس بالحضرة)) كما يقول ابن الخطيب^(١) فالسلطان شخصياً كان يتدخل في ذلك^(٢) وفيما يلي تراجم وافية لعلماء وشيوخ هذه المدرسة:

(١) محمد بن محمد بن محارب الصريحي (ت: ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م)

يكنى ابا عبدالله ويعرف بأبن أبي الجيش من أهل مالقة، كان ((اماماً في الفرائض والحساب، قائماً على العربية، مشاركاً في الفقه والأصول وكثير من العلوم العقلية))، جلس بمالقة للاقراء، ثم دخل غرناطة مرات متعلماً، ودعي للاقراء بمدرستها النصرية عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م. توفي في مالقة في ((ربيع الآخر من عام ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م، بعد أن تصدق بمال كثير، وأوقف عليها ريعاً خاصاً لطلبة العلم، وحبس عليهم كتبه))^(٣).

(٢) يحيى بن أحمد بن هذيل التجيبي (ت: ٧٥٣هـ / ١٣٥٢م)

يكنى أبو زكريا، كان آخر حملة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها من طب وهندسة وهيئة حساب وأصول وأدب، جلس بالمدرسة اليوسفية بغرناطة يقرأ الاصول والفرائض والطب، وله ديوان بعنوان السليمانيات والعزفيات^(٤).

(٣) محمد بن إبراهيم بن محمد السيارى المعروف بالبباني (ت:

٧٥٣هـ / ١٣٥٢م)

- (١) الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٣ / ٣٢٨.
(٢) المصدر نفسه، ٣ / ٣٢٨؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠١.
(٣) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٤ / ٣٩٠؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠٦.
(٤) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٤ / ٣٩٠؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠٧؛ النقيب، شخصيات وأحداث، ص ٢٥.

يكنى أبو عبدالله، من أهل غرناطة إقرأ الفقه ودرس طيلة حياته وكان مرجعاً في المشكلات ومستشاراً في الأحكام، يقوم على الفقه أحسن قيام، حسن التعليم، سهل الالفاظ، يشارك في العربية والفرائض والأصول. توفي رحمه الله وهو مدرساً بالمدرسة اليوسفية وخطيباً بمسجد المنصورة^(١).

(٤) محمد بن علي بن احمد الخولاني (ت: ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م)

يكنى أبا عبدالله، ويعرف بابن الفخار، أصله من مجلة، كان أستاذ الجماعة، عاكفاً على العلم، ملازماً للتدريس، إمام الائمة، منتشر الذكر، بعيد الصيت، عظيم الشهرة، مستبحر اللفظ، يتفجر بالعربية تفجر البحر، جلس للتدريس في المدرسة النصرية، ((وتقدم خطيباً بالمسجد الأعظم))، ((وقل في الأندلس من لم يأخذ عنه من الطلبة))، ((وخرج ودرّب وأجاز))، وكان لا يأخذ على ذلك اجراً إلا الجراية المعرفة^(٢).

(٥) الفقيه أبو محمد بن عبدالله بن أبي القاسم بن جزّي الكلبّي

(ت: ٧٥٧هـ/ ١٣٥٦م)

(١) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب، تح: عباس عبد السلام، القاهرة، ١٣٥١هـ، ٢/ ٢٧٦ - ٢٧٧؛ ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في اعيان المائة الثامنة، تح: محمد سيد جاد الحق، القاهرة، ١٩٦٦، ٣/ ٣٨٢؛ النقيب، شخصيات واحداث، ص ٢٥.

(٢) ابن الخطيب، الاحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٣/ ٣٥، ٣٦؛ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، القاهرة، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ١٧٤ / ١؛ المقري، نفح الطيب، ٥/ ٣٨٣؛ عيد وفرحات، يوسف يوسف، معجم الحضارة الاندلسية، ط١، بيروت، دار الفكر العربي، ٢٠٠٠، ص ٤٠١.

دور المدرسة اليوسفية في انتشار العلوم والمعارف في مملكة غرناطة
أ.د. أحلام حسن مصطفى النقيب و د. برزان ميسر حامد احمد

من أهل غرناطة، اديب وحافظ اشتغل بفن العربية، أخذ عن والده أبي القاسم وعن القاضي أبي البركات بن الحاج وسواهما، كان قاضياً وقيهاً وشاعراً معروفاً، ترك مقطعات شعرية رصينة وكان يباهى به على المشرق والمغرب^(١).

(٦) منصور بن علي بن عبدالله الزواوي (كان حياً عام ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م)

يكنى أبا علي، مقرئ، قدم الأندلس في عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م، وكان معجزة في العلم وله مشاركة حسنة في كثير من العلوم العقلية والنقلية، ونظرة في الأصول والمنطق والكلام، ودعوى في الحساب والهندسة والآلات. قام بتدريس المواد الرياضية في المدرسة الغرناطية، ثم غادر الأندلس في عام ٧٦٥ هـ / ١٣٦٣ م^(٢).

(٧) أحمد بن علي بن محمد بن علي بن محمد خاتمة الانصاري (ت):

(٧٧٠ هـ / ١٣٦٨ م)

يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن خاتمة، ولد بالمرية سنة ٧٢٤ هـ^(٣)، يقول عنه شبانة^(٤) أنه من أشهر أساتذة المدرسة اليوسفية، ثم يذكر في موضع آخر أنه أوقف جزءاً من حياته على خدمة مدرسة غرناطة حيث درس لتلاميذها^(٥) وفي

(١) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٣ / ٣٩٢؛

البغدادي، إسماعيل، هدية العارفين، بيروت، د. مط، ١٩٥٥، ١٦٠ / ٢؛ عيد وفرحات، معجم الحضارة الأندلسية، ص ١٩٠.

(٢) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٣ / ٣٢٥؛

عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠٧؛ الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٧.

(٣) عيد وفرحات، معجم الحضارة الأندلسية، ص ١٩١.

(٤) يوسف الأول بن الأحمر، ص ١٠١.

(٥) المرجع نفسه، ص ١٦٠.

موضع ثالث يقول انه قضى شطراً هاماً من حياته بمدرسة غرناطة^(١) وقد أورد ابن الخطيب^(٢) ترجمة وافية، عن صديقه ابن خاتمة لم يشر فيها إلى انه عمل بالمدرسة اليوسفية، وإنما أشار إلى أن مجيئه إلى غرناطة كان لمجرد الزيارة في بعض الأحيان. كما ان ابن الأحمر^(٣) لم يشر إلى ذلك اطلاقاً. أما سوليداد خيلبرت فلم تشر هي الأخرى في أي موضع من دراستها وتحقيقتها لديوان ابن خاتمة، إلى أنه قد عمل مدرساً بالمدرسة الغرناطية، وأن أهم ما تقلده من مناصب هو الإقراء في جامع المريّة، وربما قد شغل أيضاً منصب كاتب لفترة قصيرة جداً.

(٨) محمد بن احمد بن محمد بن أبي بكر بن مرزوق (ت: ٧٧١ هـ)

(١٣٦٩م)

من أهل تلمسان، قدم الأندلس موفداً من أبي الحسن المريني^(٤) (٦٩٧-٧٥٢ هـ / ١٢٩٧-١٣٥١م) في المغرب، واجتذبه سلطانها وبقي في غرناطة، قلده السلطان الخطبة في مسجده عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢م، واقعهه للإقراء بالمدرسة في حضرته، ثم انصرف بعد ذلك من الأندلس في أواخر عام ٧٥٤ هـ - ١٣٥٣م^(٥).

(١) ينظر تعليق المحقق على ترجمة المؤلف ضمن كتاب أوصاف الناس لابن الخطيب، ص ٦٩.

(٢) الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ١ / ٢٣٩ - ٢٥٩.

(٣) ابن الأحمر، أبو الوليد إسماعيل، نثير فرائد الجمال في شعر من نظمنا وإياه الزمان، تح: محمد رضوان الداية، ط١، بيروت، ١٩٧٦، ص ١٧٥.

(٤) هو السلطان علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق المريني، يكنى أبا الحسن ويلقب بالمنصور بالله، من افخم ملوك بني مرين دولة، وأضخمهم ملكاً، وأبعدهم صيتاً، وأعظمهم ابهة، وأكثرهم اثاراً بالمغربيين الاقصى والاوسط والاندلس، بويح بفاس بعد وفاة أبيه السلطان أبو سعيد عثمان سنة ٧٣١ هـ بعهد منه. ينظر: ابن الخطيب، اللوحة البدرية، ص ٩٢؛ الصاوي، الصاوي محمد، الدولة المرينية، ط١، الجزيرة، الدار العالمية للكتب والنشر، ٢٠١١، ص ١٧٨.

(٥) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة القاهرة، ١٩٧٤ - ١٩٧٧، ٣ / ١٠٤، ١٠٥؛ السيوطي، بغية الوعاة، ١ / ٤٦؛ عيسى، تأريخ التعليم في الأندلس، ٤٠٥.

(٩) فرج بن قاسم بن لب الثعلبي (ت: ٧٨٠هـ / ١٣٧٨م)

من أهل غرناطة، يقول عنه شبانة^(١) انه من أشهر أساتذة جامعة غرناطة (المدرسة اليوسيفية) وتربطه بالوزير ابن الخطيب صلات أدبية وعلمية معروفة. عليه مدار الشورى واليه مرجع الفتوى، اشتهر بغزارة حفظه واضطلاعه بالمسائل والقيام على القراءات والتبريز في التفسير والمشاركة في الأصول والفرائض والأدب. اقرأ بالمدرسة النصرية في عام ٧٥٤هـ، معظما عند الخاصة والعامة وله قصائد في مدح الرسول (ﷺ)^(٢).

(١٠) إبراهيم بن محمد بن فتوح العقيلي الاندلسي (ت: ٨٦٧ هـ /

١٤٦٢م)

يكنى أبا اسحاق، ويعرف بابن فتوح، فقيهاً وعالماً، كان مفتي غرناطة على المذهب المالكي ومن ابرع أساتذة مذهب الامام مالك في المدرسة اليوسيفية، متقناً في العلم، محققاً ونظّاراً واستاذاً، حافظاً للغة والأدب والشعر، خصه الله بفكر نقاد وذهن منقاد، فانتفع به الجهادية والنقاد، وتخرج على يديه أكثر طلبة الأندلس الاعيان ولاسيما طلبة المدرسة اليوسيفية، توفي بغرناطة ليلة الثلاثاء السادس من ذي الحجة عام ٨٦٧ هـ / ١٤٦٢ م، وقد نيف على الثمانين سنة^(٣).

(١) يوسف الأول بن الأحمر، ص ١٠١.

(٢) ابن فرحون، الديباج المذهب، ١٣٩/٢؛ السيوطي، بغية الوعاة، ٢/ ٢٤٣-٢٤٤؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ٤٠٣، ٤٠٤؛ النقيب، دور الوزير أبو النعيم رضوان، ص ٢٥؛ عيد وفرحات، معجم الحضارة الأندلسية، ص ١٩٨.

(٣) ابن القاضي، أبو العباس احمد بن محمد الكناسي، درة الحجال في اسماء الرجال الشهير بـ ذيل وفيات الاعيان، تحقيق: محمد الاحمدي أبو النور، ط ١، القاهرة، دار التراث، تونس، المكتبة العتيقة، ١٩٧٠، ص ١٩٦؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠١، ٤٠٢.

(١١) إبراهيم بن علي بن محمد الربيعي التونسي (ت: ٨٧٤هـ/ ١٤٦٩م)

من أساتذة المدرسة اليوسفية بغرناطة، درس الفقه وأصوله وأذن له في تدريسهما في المدرسة النصرية^(١).

(١٢) محمد بن أبي الفضل البسطي

يكنى أبا عبدالله، ولم تذكر المصادر تأريخ وفاته، كان فقيها مشهوراً وآخر من درّس بالمدرسة اليوسفية في غرناطة قبل وقوعها في أيدي الملكين الكاثوليكين، فضلا عن كونه شاعر البلاط المفضل لدى أبي عبدالله الصغير (٨٩٢-٨٩٧هـ/ ١٤٨٧-١٤٩٢م) اخر ملوك غرناطة^(٢).

والى جانب ذلك كان بعض الطلبة يتلقون العلم في بيوت الأساتذة (الشيخوخ) نظير دفع أجر مقابل ذلك^(٣)، يشبه ما يسمى اليوم بالدروس الخاصة، وهي التي كانت تستخدم في تعليم أولاد الملوك والوزراء وعلية القوم^(٤).

وكان للأستاذ (الشيخ) ان يوقع على تلاميذه عقوبة الضرب إذا حدث ما يستوجب منهم ذلك، بالدرّة أو الشوكة أو العود^(٥)، ويفضل أن يكون شيخاً خيراً، دينا، عفيفاً، ورعاً، قليل الكلام والشهوة إلى استماع ما لا يعنيه، وان لا يحضر

(١) عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠١.

(٢) المقري، أزهار الرياض، ١/ ١٠٣؛ عيسى، تاريخ التعليم في الأندلس، ص ٤٠٥.

(٣) الغبريني، أبو العباس احمد بن احمد بن عبدالله، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق: محمد بن أبي شنب، ط١، الجزائر، د. مط، ١٩١٠، ص ٤٣ - ٤٤؛ الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٧.

(٤) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، طبعة دار المعارف بمصر، ١٩٥٥، ١/ ١٦٤؛ الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٧، ٣١٨.

(٥) الازدي، احمد بن إبراهيم بن يحيى، تحفة المغرب ببلاد المغرب، لمن له من الاخوان، في كرامات الشيخ أبي مروان، تحقيق ونشر: فرنادو دي لاجرانخا، مدريد، ١٩٧٤، ص ١٥٢.

دور المدرسة اليوسفية في انتشار العلوم والمعارف في مملكة غرناطة
أ.د. أحلام حسن مصطفى النقيب و د. برزان ميسر حامد احمد

الجنائز البعيدة، ولا يكثر من البطالة، ولا يهمل الصبيان، ولا يزول عنهم إلا لاخذ
الغذاء أو الوضوء^(١).

وقام بعض الأساتذة بحبس مؤلفاتهم على طلبتهم للانتفاع بها^(٢) وجعل
أهل الأندلس ومنهم أهل غرناطة القرآن الكريم وقراءته أساساً في التعليم، والى
جانبه يدرسون الشعر والموشحات والترسل وقوانين اللغة العربية وتجويد الخط^(٣)
حتى أنه صار حسن الخط من المميزات التي يجب ان تتوفر في طلاب العلم
والعلماء^(٤).

كما انتشرت عادة اختصار امهات الكتب خلال عصر مملكة غرناطة،
وذلك حتى يتمكن الناس من قراءتها نظراً لانشغالهم بحياة الجهاد ضد الإسبان،
وامور المعيشة الصعبة، مما لم يكن يسمح بقراءة تلك الموسوعات^(٥) ومن العادات
الأخرى التي كانت شائعة بين العلماء آنذاك، عادة كتابة فهارس باسماء شيوخهم
حيث ظهرت المعاجم بأسماء الكتب والتعريف بمؤلفيها مرتبة على حروف
المعجم^(٦) وهذا لم يكن من الامر اليسير.

ان ما ذكرناه من علماء وشيوخ، ممن قاموا بالتدريس في المدرسة
اليوسفية، أدوا ادواراً علمية وثقافية متميزة في تربية وتنقيف أجيال كثيرة سواء من
داخل مملكة غرناطة الإسلامية أو من خارجها و إنهم قلة من كثرة كثيرة أغفلتها
مصادرنا العربية وبعضها الاخر لم نعثر عليه بسبب فقدان المصنفات التأريخية
الأصلية.

(١) الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٨.

(٢) المقري، أزهار الرياض، ١ / ٥٨؛ الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٨.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د. ت، ص ٣٤١ -
٣٤٢، ٣٧٤، ٤٩١ - ٤٩٢؛ الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣١٩.

(٤) الطوخي، المرجع نفسه، ص ٣١٩.

(٥) ابن القاضي، جذوة الاقتباس فيمن حل من الاعلام في مدينة فاس، د. ط، المغرب،
فاس، د. مط، ١٣٠٥هـ، ١ / ١٤٤، ٢٥٢ - ٢٥٣؛ الطوخي، مظاهر الحضارة،
ص ٣١٩ - ٣٢٠.

(٦) ابن فرحون، الديباج المذهب، ٢ / ٢٩١ - ٢٩٥؛ الطوخي، مظاهر الحضارة، ص ٣٢٠.

ويكفي للدلالة على ذلك ما قام به الملكان الكاثوليكيان فرديناند وايزابيلا من إحراق آلاف المجلدات في اكداس مكدسة في مختلف مجالات العلوم والآداب والفنون والمعارف في ميدان الرملة وسط غرناطة أمام مسمع ومرآى من العالم فهو إحراق جزء من تراثنا العربي المجيد الذي يعجز أعداء الإسلام من اقتلاع جذوره العريقة من أرضنا الطيبة.

وربما مستقبلاً تظهر مصنفات ودراسات تأريخية جديدة يقدم على تحقيقها من يرتاد الدراسة في المجال الأندلسي الرائع، وستظهر آنذاك شخصيات علمية من أساتذة ومشايخ ادوا رسالاتهم العلمية بكل فخر وتواضع تعتربهم فكرة نشر العلوم والمعارف العربية في مختلف مجالاتها والتي تركت أثارها في مشرق العالم وغربه.

هؤلاء العلماء والفقهاء والمشايخ الكبار يستحقون عن جداره أن يقف لهم التأريخ اجلاً ليُكبر فيهم تلك الروح العلمية التي لعبت دوراً بارزاً في نشر العلوم والمعارف في كل من الأندلس والمغرب الأقصى وشمال أفريقيا وحتى بلدان المشرق العربي الإسلامي، وتحديداً علماء ومشايخ المدرسة اليوسفية، ذلك الصرح العلمي الحضاري العريق الذي تلقى فيه العديد علومهم ومعارفهم وأصبحوا يشار لهم بالبنان ومنهم الوزير الغرناطي الشهير (ابن زمرك^(١)) تلميذ ابن الخطيب هذا

(١) ابن زمرك: تلميذ ابن الخطيب وصدر من صدور طلبة الأندلس وأفراد نجائها، دخل المدرسة اليوسفية، وتلمذ على أيدي كبار اساتذتها فاحسن الاصغاء وأحسن الدراسة في غرناطة وفاس. قام برحلة في طلب العلم والاستزادة ثم ترقى في درج المعرفة فاصبح استاذاً يتولى التدريس الحقه ابن الخطيب بادارة الدولة لما رأى فيه من نجابة وفطنة، ولكن تغيرت اطباعه في عهد السلطان ابو الحجاج يوسف الأول، وبسبب طغيانه وغطرسته وحدة لسانه نفاه سلطانه إلى المرية ثم اعاده إلى الوزارة ولكنه اساء السيرة ثانية على عهد السلطان محمد السابع، فكثر خصومه وازداد استبداده، وفي أواخر سنة ٧٩٧ هـ داهمته في منزله مجموعة من المغامرين فقتلوه وولديه وخدمه. ينظر: المقري، نفع الطيب، تحقيق: يوسف الشيخ، محمد البقاعي، ط١، بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٦، ٥١/٧؛ النقيب، أحلام حسن مصطفى، أبين زمرك من مشاهير السياسة الغرناطية، بحث منشور في مجلة سُر من رأى، تصدرها كلية التربية، سامراء، جامعة تكريت، العدد ٢٦، المجلد ٧، السنة السابعة، تموز، ٢٠١١، ص ١-٢.

دور المدرسة اليوسفية في انتشار العلوم والمعارف في مملكة غرناطة
أ.د. أحلام حسن مصطفى النقيب و د. برزان ميسر حامد احمد

الوزير الذي ترك أثراً كبيراً في السياسة الغرناطية الداخلية والخارجية، والذي تقلد منصب الوزارة بعد أستاذه ابن الخطيب الشخصية المعروفة المتعددة الجوانب السياسية والإدارية والأدبية والدبلوماسية وغيرها.

الخاتمة

بعد الانتهاء من هذا الجهد العلمي المتواضع، توصلنا إلى النتائج التالية:

١. إن النظام التعليمي من أهم المعالم التي تميز حركة الشعوب على طريق تطورها وارتقائها، كما أنه الأساس الذي تبنى عليه حضارات الأمم، ومن هنا كانت أهمية دراسة هذا الموضوع، للتعرف على الأرضية العلمية والثقافية لهذه الحقبة التاريخية الزاهرة من تأريخ مملكة غرناطة العربية الإسلامية العريقة.

٢. تبين لنا من خلال هذه الدراسة، أن سلاطين مملكة بني الأحمر في الأندلس قد وجهوا اهتماماً خاصاً بالتعليم ابتداءً من سن الطفولة المبكر وحتى سني الكهولة وأحياناً حتى وفاة الشيخ نفسه، ولا سيما السلطان أبو الحجاج يوسف الأول الذي كان عالماً أديباً شغوفاً بالعلوم والفنون وتشبيده العديد من المدارس التعليمية ومنها المدرسة اليوسفية بغرناطة موضوع بحثنا.

٣. كان لشيوخ وأعلام المدرسة اليوسفية أثر كبير في نشر الثقافة لاسيما إن ثقافتهم كانت أوسع من ثقافة غيرهم وكانت معارفهم ودائرة اطلاعهم واسعة وشاملة بحكم موقعهم في التدريس، هذا الأمر انعكس إيجاباً مما كان له أطيّب الأثر على سكان غرناطة ومستواهم العلمي والثقافي.

٤. تنوع البرنامج التعليمي في المدرسة اليوسفية، حيث دُرست مختلف العلوم الدينية واللسانية، وكان القرآن الكريم وعلومه في مقدمة العلوم التي تناولها شيوخ هذه المدرسة فضلا عن دراسة اللغة والأدب والأشعار وعلوم الهندسة والحساب.

٥. سادت العلاقات الطيبة بين الأستاذ (الشيخ) وطلبته، فالأول مسؤول عن تعليمهم وبذل كل الجهد في صالحهم، أما الثاني فمطالب بأن يعكف على الدراسة، وان يحترم أستاذه، وان يمضي على قواعد وعادات المجالس العلمية.

٦. كان للمدرسة اليوسفية دور كبير في نشر العلوم والمعارف في داخل غرناطة وخارجها حيث اعتمدت على كبار الشيوخ والعلماء والاعلام ممن قاموا بالتدريس في هذا الصرح الحضاري العلمي العريق.

The Role The Yousifi School in Spreading Science and Knowledge in Granada Kingdow

***Prof.Dr.Ahlam Hasan Mustafa AL-Naqeeb &
Dr.Barzan Mauyassar Hamid Al-Ahmed***

Abstract

The Intellectual Movement witnessed a marked progress during the Ghurnada Kingdom period . The Kings (Sultanates) themselves were scholars and researchers. They enhanced the scholars for they were also scienceests , among them was the founder of the Kingdom the Sultan Mohammad Ibn Al- Ahmar . As a result the intellectual life reached its high progress in the rule of the Sultanate Abi Al-Haggag Yousif Bin Ismaeel Al-Nasry (733- 755 A.H) and during the role of his son the Sultan Mohammad Al Ghny bi - Allah (755 - 793 A.H),the Sultan Abu Al-Haggag himself was Scholar and poet and he loved these fields of science.

As a result many schools and scientific institution appeared during this period in Ghunada Kingdom ,and the kings asked the scohlers to visite Ghunada and then gave them a high position , and asked them to teach in the schools of the Kingdom different science.

